"هيراكليس" فى التراجيديا الإغريقية
وفى مسرحية "هيراكليس فى الحظيرة" لدورينمات

أ.د. فؤاد شرقاوى
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

يحدد أرسطو إطار العلاقة بين الفرد والمجتمع، حينما يذكر ـ فى عبارة موجزة وقاطعة الدلالة فى نفس الوقت ـ أن الفرد كائن اجتماعى ὁ ἄνθρωπος φύσει πολιτικὸν [١]. وتجدر الإشارة هنا أن كلمة الفرد بمفهومها الاصطلاحى ليس لها مرادف فى اللغة الإغريقية، وإنما يُعبَر عنها بكلمة ἄνθρωπος ، كما أن كلمة مجتمع باتت تقابل كلمة πόλις فيما بعد الفترة الهومرية [٢] . وعلى ذلك يمكننا القول أن العلاقة بين الفرد والمجتمع – طبقاً للمفهوم الأرسطى ـ علاقة عضوية أو مركبة، فكلاهما يستمد وجوده من الآخر، كما تُقاس قوة العلاقة بينهما بمقدار مايقدمه كلاهما للآخر.

وتختار هذه الورقة البحثية هيراكليس نموذجاً للفرد فى علاقته بالمجتمع، ويرجع ذلك إلى كونه يمثِل ويجسِّد تفوق وقوة الفرد، مما يجعله رمزاً للبطولة بالنسبة للبشر أجمعين . والجدير بالذكر أن شخصية هيراكليس شغلت مساحة واسعة فى التراجيديا الإغريقية لم تحظ بها أية شخصية أخرى[٣]، إذ تناولتها تسع عشرة تراجيدية، كان نصيب اسخيلوس منها أربع تراجيديات فُقدت بالكامل وهى بروميثيوس طليقاً، وألكمينى، وأبناء هيراكليس، وفيلوكتيتيس، كما كان نصيب سوفوكليس أربع تراجيديات أيضاً

فُقدت منها اثنتان هما أمفتريون وهيراكليس الصغير، وبقيت اثنتان هما فيلوكتيتيس ونساء تراخيس . أما يوربيديس فكان له النصيب الأوفر، إذ صور "هيراكليس" فى إحدى عشر تراجيدية،فُقد منها ثمان، وبقيت ثلاث تراجيديات هى : " جنون هيراكليس" و " أبناء هيراكليس " و " هيراكليس".

وحينما نُلقى نظرة عامة على صفات هيراكليس التى تتردد فى التراجيديات الباقية، نجد أنها تُجسِّد أمامنا صورة نموذجية لعلاقة الفرد بالمجتمع . فهيراكليس فاعل للخير εὐεργέτης لأهل تراخيس جميعاً[٤]، بل ولكل بلاد الإغريق [٥]، ومخلِّص من الشر ἀπαλλάξι κακός [٦]، ومعمِّر للأرض التى لم يطأها أحد من قبل [٧] .وهو محب للبشر φίλος ἀνθρώπων [٨]، ويسعى إلى خير الإنسانية جمعاء [٩] .

تؤكد كل هذه الإشارات السابقة أن هيراكليس فى التراجيديا الإغريقية يُعد صورة نموذجية للبطولة الفردية . ويرى "أدكنز" أن قيام هيراكليس بحماية الضعفاء ضد قوى الشر يجعله نموذجاً للإنسان النبيل ἀγαθός وتجسيداً لقيمة الفضيلة ἀρετή [١٠] . ومن ناحية أخرى فإن أعمال هيراكليس تتفق مع دعوة أرسطو إلى مساندة الأهل والأصدقاء، وإيذاء الأعداء، باعتبار ذلك قيمة أخلاقية يجب أن يتحلى بها الفرد [١١]. وواقع الأمر أن مثل هذه الدعوة تعكس إتجاه الفكر الأثينى السائد إبان القرن الخامس ق.م، إذ أن ذلك المبدأ يؤدى إلى استقرار وسلامة المجتمع[١٢] .

وحينما نطالع تراجيدية "فيلوكتيتيس"، نجد أن هيراكليس يظهر بعد أن وصلت أحداثها إلى درجة قصوى من التأزم . فقد فشل أوديسيوس ونيوبتوليموس فى الحصول بطريقة مخادعة على قوس هيراكليس الذى يمتلكه فيلوكتيتيس، ويتوقف عليه انتصار اليونانيين على طروادة، وانكشف أمرهما لفيلوكتيتيس، فازداد إصراراً على موقفه الرافض للرحيل معهما إلى طروادة، أو إعطائهما القوس حتى ولو ترتب على ذلك هزيمة اليونانيين[١٣]. وعندئذٍ نجد هيراكليس ينصح فيلوكتيتيس بالتراجع عن قراره، والتوجه إلى طروادة ليحظى بالفضيلة .

ἐλθὼν δὲ σὺν τῷδ' ἀνδρὶ πρὸς τὸ Τρωικὸν
πόλισμα , πρῶτον μὲν νόσου παύσει λυγρᾶς ,
ἀρετῇ τε πρῶτος ἐκπιωεὶς στρατεύματος , [14]

حينما تذهب مع هذا الرجل إلى مدينة طروادة،

سوف ينتهى ـ فى البداية ـ مرضك الأليم

وتكون أول من يحظى بالفضيلة بين الجيش

ولقد اختلفت آراء النقاد اختلافاً بيناً حول قيمة ظهور هيراكليس فى ذلك الوقت المتأزم . يرى فريق من النقاد أن الهدف لم يكن سوى إعادة فيلوكتيتيس إلى طروادة، وبذلك تكتمل أركان الأسطورة(١٥) . ويرى فريق آخر أن الهدف هو تأكيد قيمة الصداقة التى تربطه بفيلوكتيتيس ممايجعله يتخلى عن عناده، ويعود إلى طروادة راضياً (١٦) . ويرى فريق ثالث أن تدخل هيراكليس يُعد انتصاراً أخيراً لقوة الإقناع(١٧)، ويتمثل ذلك فى إثنـاء فيلوكتيتيس عن إعلاء مبدأ إيذاء الأعداء على إعانة الأصدقاء، وهو مايؤدى إلى تدمير العلاقات الإنسانية (١٨) .

وفى حين أن هذه الآراء تركزت حول تغيير خط فعل التراجيدية وشخصيتها الرئيسية، فإن هناك رأياً آخر يتناول ذلك الموقف من زاوية هامة هى العلاقة بين ظهور هيراكليس وبين فكرة التراجيدية، إذ يذكر أن تدخل هيراكليس يترجم قضيتها، وهى تحقيق التوازن بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع، وإلى أى مدى يجب على الفرد أن يقمع إرادته الخاصة لمصلحة مجتمعه (١٩) . فلقد استهدف سوفوكليس من وراء ظهور هيراكليس ـ فى تقديرى ـ أن يضع أمامنا صورتين متناقضتين للعلاقة بين الفرد والمجتمع، صورة إيجابية يجسدها هيراكليس، وأخرى سلبية يجسدها فيلوكتيتيس . ونرى أن هيراكليس قد تمكّن من تحويل فيلوكتيتيس إلى صورة موازية له حينما نقله من ذاته الضيقة إلى التعايش مع الذات المجتمعية . وربما يعكس إصرار هيراكليس على اشتراك فيلوكتيتيس فى حرب طروادة، رغبة هيراكليس نفسه المشاركة فى تلك الحرب بصورة رمزية من خلال قوسه الذى يحمله فيلوكتيتيس .

وإذا كانت تراجيدية فيلوكتيتيس تواجهنا بموقف متأزم يشغل الربع الأخير من أحداثها، فإن تراجيدية " جنون هيراكليس" تطل علينا منذ بداية أحداثها بأزمة طاحنة، إنها ليست أزمة تواجه المجتمع كما هو الحـال عند سوفوكليس، وإنما تواجه أسرة هيراكليس نفسه التى تتعرض للقتل على يدى "ليكوس" طاغية طيبة (٢٠) . وإذا كان هيراكليس يظهر فى " فيلوكتيتيس" دون مقدمات فإنه يشغل تراجيدية " جنون هيراكليس" بأسرها حتى فى حالة غيابه، حيث يتساءل أبناؤه عن مكانه وموعد عودته (٢١)، ويدعو والده الآلهة أن تعيده بأقصى سرعة حتى يتوقف أبناؤه وزوجته عن ذرف الدموع (٢٢) . كما يشاركه شيوخ طيبة الدعاء (٢٣) . وحينما تدنو أسرته من

الموت، تصرخ زوجته طالبةً نجدته [٢٤]، فى حين أن الطاغية ليكوس يشكك فى عودته ويستهزىء ببطولته [٢٥] . غير أن هيراكليس لا يلبث أن يعود [٢٦]، فى اللحظة الحرجة لينقذ أسرته من بطش ليكوس .

من الواضح أن تراجيدية " جنون هيراكليس " تصور تعرض أسرته للموت على يد ليكوس طاغية طيبة دون أن يتصدى المجتمع لحمايتها، ولذا تلجأ إلى معبد " زيوس " طلباً للحماية . فلقد فقد " أمفتريون " والد هيراكليس و " ميجارا " زوجته الأمل فى مساعدة الأصدقاء لأسرة هيراكليس فى محنتها[٢٧] . هكذا تحيط بأسرة هيراكليس ـ فى غيابه ـ أجواء قاسية تتجسد فى الموقف العدائى لليكوس طاغية طيبة، وموقف أهل طيبة المتخاذل، ولا تجد فى طيبة تعاطفاً إلا من شيوخها [٢٨]، الذين تتكون منهم جوقة التراجيدية، إلا أن موقفهم لا يقدم ولا يؤخر، فتقدمهم فى العمر يحول دون مساعدتهم أسرة هيراكليس فى محنتها، لأنهم ـ كما يصفون أنفهسم ـ مثل طائر عجوز لم يعد له صوت [٢٩] .

فإذا كان شيوخ طيبة عاجزين عن حماية أسرة هيراكليس، فإن أهل طيبة متخاذلون بسبب انعدام وعيهم . ولذلك، فإن شيوخ طيبة يوجهون إليهم اللوم لموقفهم السلبى من طغيان ليكوس ورضائهم به حاكماً ويتهمونهم ببث الفتنة وانعدام الوعى[٣٠]. ومن ناحية أخرى يشير أمفتريون إلى تفشى الفساد فى طيبة بسبب طبقة من الأتباع والمنتفعين تحيط بالملك ليتسنى لها السلب والنهب [٣١] .

على أن موقف المجتمع المتخاذل من أسرة هيراكليس لايدين طيبة فحسب، وإنما يشمل اليونان بأسرها نظراً لما قَدمه لها هيراكليس من خدمات جليلة . لذا نجد شيوخ طيبة المتعاطفين مع أسرة هيراكليس ينتقدون بلاد اليونان بأسرها [٣٢]، بينما يصب أمفتريون، والد هيراكليس، جام غضبه على طيبة واليونان معاً لموقفهما السلبى من أسرة هيراكليس، إذ يقول :

ὦ γαῖα Κάδμου,καὶ γὰρ εἰς σ'ἀφίξουμαι
λόγους ὀνειδιστῆρας ἐνδατούμενους,
τοιαῦτ' ἀμύνεθ' Ἡρακλει τέκνοισί τε ,
ὅς εἷς Μινύαισι πᾶσι διὰ μάχης μολὼν
Θήβαις ἔκθηκεν ὄμμ' ἐλεύθερον βλέπτειν .
οὔδ' Ἑλλάδ' ἥνες' ὄυδ'ἀνέξομάι ποτε

σιγῶν , κακίστην λαμβάνων εἰς πᾶιδ' έμον
ἢν χρῆν νεοσοῖς τοῖσςε πῦρ λόγκας ὅπλα
φέρουσαν ἐλθεῖν ποντίων καθαρμάτων
χέρσου τ' ἀμοιβάς, ὢν ἐμόκθησεν χάριν
τὰ δ' ὥτέκν' ὑμιν ὄυτε Θηβαίων πόλις
οὐθ 'Ελλὰςς ἀρκεῖ .(33)

ياأرض كادموس! الآن سأتوجه إليك بالكلام،

فأصب عليك وابل التوبيخ، أهكذا تنقذين هيراكليس

وأبناءه .. ذلك الذى دحر المينياى على

أرض المعركة، وأعاد إلى طيبة نظرة الحرية ؟

ولن تلقى منى هيلاس نظرة ثناء واحدة، لا ولن

يستطيع أحد أن يسكت صوتى، إذ كان موقفها

تجاه إبنى مشيناً للغاية . كان على هيلاس أن تهب

للقتال بالنار والسيف لنجدة هؤلاء الأطفال ثواباً

وفاقاً لأعمال أبيهم البطولية فى تطهير البر

والبحر ولكن لا أهل طيبة ولا هيلاس،يا

أطفالى لبوا نداء الواجب (٣٤)

يمكننا القول ـ مما تقدم ـ أن المأساة الحقيقية التى تواجهها أسرة هيراكليس ـ فى غيابه ـ هى موقف المجتمع اليونانى السلبى من الخطر الذى يتهددها . لقد كان هذا الموقف بعيداً عن توقعات الجميع، نظراً لما قدّمه هيراكليس من خدمات جليلة للمجتمع، ولذلك فلقد صدم ذلك الموقف المتخاذل مشاعر كل من الزوجة ووالد هيراكليس وكذلك شيوخ " آرجوس " الذين تتكون منهم جوقة التراجيدية . ولاشك أن

ذلك الموقف السلبى الصادم قد أصاب أسرة هيراكليس بحالة من الإحباط التام مما جعلها توقن أن القضاء عليها على يد ليكوس قد بات أمراً لا مفر منه .

وفى غمرة هذا الموقف المتأزم، يعود هيراكليس إلى طيبة[٣٥] وهو يحلم باستقراره الأسرى بعد غيابه الطويل عنها من أجل القضاء على قوى الشر التى تهدد المجتمع . ولا يخلو الموقف ـ هنا ـ من مفارقة درامية صارخة، فعلى الرغم مما قدّمه هيراكليس من خدمات للمجتمع، فإنه لم يستطع تحقيق استقراره الاجتماعى[٣٦] .لقد كان موقف المجتمع السلبى من قرار طاغية طيبة القضاء على أسرته صدمة عنيفة هزت مشاعر هيراكليس[٣٧]، واعتبر ذلك نوعاً من الخيانة ونكران الجميل[٣٨] . هنا يلمس يوربيديس نقطة هامة فى العلاقة بين بين البطل الفرد والمجتمع، فقد كان متوقعاً أن يشعرالمجتمع بفضائل هيراكليس تجاهه، غير أن هيراكليس يُفاجأ بحالة من الجحود ونكران الجميل اللذان سيكون لهما تأثيرهما النفسى البالغ عليه كما سنرى فيما بعد . على أية حال، لم يكن فى وسع هيراكليس- بعد تخلى المجتمع عنه – سوى أن يمضى ـ بمفرده ـ للقضاء على الطاغية ليكوس حتى ينعم باستقراره الاجتماعى .

على أن هيراكليس، بعد أن يتمكن من القضاء على الطاغية ليكوس[٣٩]، تصيبه " ليسا " ـ ربة الجنون ـ بإيعاز من " هيرا " ـ بلوثة عقلية[٤٠]، تدفعه إلى قتل زوجته وأبنائه معتقداً أنه يقتل أبناء " يوريثوس " Ευρεθος [٤١]، الذى كلّفه بأعماله البطولية التى تسببت فى غيابه عن أسرته . ولايخلو الموقف ـ هنا ـ من مفارقة درامية أخرى، فإن قتل ليكوس لم يحقق لهيراكليس استقراره الاجتماعى، فلقد أعقبه قتل هيراكليس لأسرته التى كان يسعى إلى حمايتها والحياة معها .

وفيما يتعلق بجنون هيراكليس، فإن هناك رأياً يقول أنه يرجع إلى عاملين أساسيين، أحدهما خارجى يتمثل فى دور "ليسا " ربة الجنون المرسلة من قبل هيرا، والآخر عامل داخلى يتمثل فيما تعرض له هيراكليس من ضغوط نفسية [٤٢] . وفى تقديرنا أن العامل النفسى كان موضع اهتمام يوربيديس الأساسى ـ بما له من باع فى هذا المجال ـ طوال أحداث التراجيدية التى اتخذت جنون هيراكليس عنواناً لها . فهيراكليس المثقل بالمعاناة πολύπονος كان عرضة للجنون نتيجة التراكمات النفسية المترتبة على غيابه القسرى عن أسرته، بالإضافة إلى صدمته النفسية الحادة حينما فوجىء ـ بعد عودته ـ بعزم ليكوس قتل أسرته، ثم ازدادت حالته سوءاً، وانتابته حالة

إحباط مريرة نتيجة عدم تقدير المجتمع لدوره، وتخليه عن الدفاع عن أسرته فى غيابه [٤٣] .

وعلى الرغم من أن هيراكليس سرعان مايفيق من نوبة الجنون، فإنه لا يعود إلى حالته الطبيعية، بل يتملكه الاضطراب، ويشعر بحاجته إلى طبيب ليعيد إليه توازنه النفسى [٤٤]، ثم تتفاقم حالته النفسية فيفكر فى الانتحار [٤٥] .ربما يكون تفكير هيراكليس فى الانتحار يستهدف التكفير عن إثم قتل أسرته، أو الهروب من المعاناة، لكننا نرى أن الدافع الأقوى من وراء ذلك هو شعوره بالإحباط وبعدم جدوى ما قدّمه من خدمات جليلة للمجتمع، وبالتالى لم يعد يتمسك بالحياة، إذ أصبحت ـ بالنسبة له ـ غير ذات جدوى .

ومن المألوف _ فى مسرح يوربيديس ـ ظهور إحدى الشخصيات فى نهاية بعض تراجيدياته لتقوم بحل الموقف المعقد، وفى هذه التراجيدية يظهر الملك الأثينى " ثيسيوس " الذى سبق أن انقذه هيراكليس من " هاديس" .

ولاشك أن اختيار يوربيديس لهذه الشخصية، التى لا تكف عن الاعتراف بفضل هيراكليس عليها [٤٦]، يستهدف تعويض إحساس هيراكليس بالجحود ونكران الجميل الذى لقيه من المجتمع الطيبى، مما قد يساعد على إعادة التوازن النفسى إليه .

إن الدورالذى يقوم به ثيسيوس يشابه ـ فى تقديرنا ـ دور الطبيب الذى أعلن هيراكليس من قبل[٤٧] أنه فى حاجة إليه . إنه يحاول تأهيل هيراكليس حتى يستمر فى القيام بدوره تجاه المجتمع وذلك عندما يذكّره أنه تحمل من قبل مالاحصر له[٤٨]، وأنه فاعل الخير للبشر، وأنه صديقهم الأعظم [٤٩] . إنه يوقظ فيه روحه البطولية للتأكيد على أن فكرة الانتحار لا تتفق معها [٥٠] . ثم يلجأ ثيسيوس إلى وسيلة أخرى لإقناع هيراكليس بالتراجع عن فكرة الانتحار النابعة من إحساسه بجحود المجتمع الطيبى، عندما ينصحه بأن يرحل معه إلى أثينا، حيث يجد هناك كل مظاهر التكريم والحفاوة [٥١] . إن قيام ثيسيوس بالعلاج النفسى لهيراكليس قد اعتمد ـ كما رأينا ـ على عاملين أساسيين وهما التأكيد على قيمة التحمل الإنسانى، وعلى المحبة الإنسانيةφιλίαالتى تقتضى مؤازرة الأصدقاء فى محنتهم [٥٢].

وفى نهاية الأمر يتمكن ثيسيوس من إقناع هيراكليس بالعدول عن فكرة الانتحار، ويعيد إليه توازنه النفسى، وقبول الأمر الواقع، والرحيل من المجتمع الطيبى إلى المجتمع الأثينى، ومن المؤكد أن تصوير هيراكليس على هذا النحو لايتفق مع القيم البطولية المثالية، كما نجدها عند سوفوكليس فى تراجيدية " آياس " على سبيل المثـال، ولكن ذلك التصـوير يتفق مـع

يوربيديس صاحب النزعة الواقعية . وليس هناك مايعبر عن واقعية بطولة هيراكليس أكثر من كلماته التى ينهى بها تراجيديته قائلاً :

τᾶις συμφοραῖς γὰρ ὅστις οὐκ ὑφίσταται ,

οὐδ' ἀνδρὸς ἄν δύναιθ' ὑποστῆναι βέλος .

ἐγκαρτερήσω θάνατον . εἶμαι δ' εἰς πόλιν

τὴν στὴν χάριν τε μυρίαν δώρων ἥκω [53].

من ذا الذى لم يتعرض للمصائب، بل
إن المرء لا يستطيع أحياناً أن يهرب من سهم
يصوبه إليه إنسان آخر. سامكث فى الحياة حتى
يواتينى أجلى، وسأذهب إلى مدينتك(٥٤)

أما مسرحية " هيراكليس فى الحظيرة" أو " هيراكليس وحظيرة أوجياس"، إذا ماترجمنا العنوان ترجمة حرفية، فهى من المسرحيات الهامة التى ألّفها الكاتب السويسرى " دورينمات" عام ١٩٦٢، وذلك عن تمثيلية إذاعية تحمل ذات الإسم، سبق أن قدّمها عام ١٩٥٤. ولقد أثارت هذه المسرحية موجة هائلة من النقد والاحتجاج، لا لشكل المسرحية وقالبها الدرامى فحسب، بل لأفكارها الساخرة وفلسفتها اللاذعة.(٥٥)

تدور أحداث هذه المسرحية حول قيام " هيراكليس"، أو عزمه على القيام بازالة الروث من حظيرة "أوجياس" ملك " إليس". ويُعد اختيار "دورينمات" لهذا الموضوع اختياراً موفقاً من الناحية الكوميدية، إذ أن المشاهد أو القارىء يتبادر إلى ذهنه فور سماعه إسم"هيراكليس" أن الأمر يدور ولاشك حول قصة ميثولوجية مليئة

بالبطولة والتضحية التراجيدية، لكن المفارقة الكوميدية فى هذه المسرحية أن " هيراكليس"، رجل المعجزات، يأتى إلى دولة " إليس" (المعادلة هنا لدولة سويسرا، أو أى مجتمع آخر مشابه) لتخليص هذه الدولة وأهلها من وسط الروث (المعادل هنا للفساد) دون أن يحرَكه دافع آخر سوى حاجته إلى المال.

وهكذا وضع " دورينمات" موضوعاً كلاسيكياً جاداً فى قالب عصرى متحرر، وعالجه معالجة ساخرة، يطرح من خلالها قضايا فى غاية الجدية. ويطلق " دورينمات" على أسلوب المعالجة الساخرة للأسطورة إسم "جروتيسك"، حيث يمكن من خلاله إبراز التناقض بين فكر الإنسان وفعله الواقعى[٥٦].

فى مستهل مسرحية"هيراكليس فى الحظيرة" يطلعنا " بوليبوس"، سكرتير " هيراكليس"، على حالة الإفلاس الحادة التى يعانى منها "هيراكليس"، فهو لم يتقاض راتبه منه منذ شهرين، بل بلغ الأمر إلى أن هيراكليس "عليه ديوناً لطيبة كلها"، كما يذكر سكرتيره الخاص[٥٧]. ولا شك أن الهدف من تصوير وضع "هيراكليس" المالى السيء هو تمهيد لعرض "أوجياس" ملك "إليس" على " هيراكليس" القيام بمهمة إزالة الروث نظير أجر ينقذه من حالة الإفلاس. وسرعان ما يظهر" أوجياس" ليعرض أمام البرلمان فكرة تكليف"هيراكليس" بإزالة الروث من "إليس" مقابل أتعاب مناسبة:

"ياأهل"إليس" ...سمعت عن شخص اسمه هيراكليس،يطلقون

عليه منظف اليونان . إنه هو مانحتاج إليه . التنظيف وإزالة الروث

أمران لايختلفان عن بعضهما . لسوف اكتب رسالة إلى هذا الرجل....إننا

سنقدم له أتعاباً مناسبة، وسندفع له المصاريف التى يتكلفها" [٥٨].

ويبدأ خط فعل المسرحية فى التصاعد التدريجى، إذ يصل إلى طيبة ساعى البريد "ليخاس" يحمل رسالة"أوجياس" إلى " هيراكليس" ويتسلمها منه سكرتيره الخاص"بوليبوس"، ونظراً لأنه كان يتطلع إلى استقبال عروض عمل تنقذ سيده من ديونه المتراكمة، فإنه يفض الرسالة فى الحال، وينطلق بها إلى "هيراكليس" لينقل

إليه هذا الخبر السعيد، غير أن " هيراكليس" لا يرحب بالرسالة، وينهال على سكرتيره بالضرب[٥٩].

من الملاحظ أن " بوليبوس" كان يظن أنه سيُسعد " هيراكليس" بهذا العرض، فإذا به يؤلمه . وفى واقع الأمر أن استياء " هيراكليس" لم يكن مرجعه أن عرض العمل مقترن بأجر، لأن المسرحية تشير إلى أن أعماله السابقة لم تكن على الإطلاق بلا مقابل[٦٠] . كل مافى الأمر أن صيغة الخطاب الذى تصفه بأنه منظف اليونان، وبأنه سيتولى أمر الروث قد تسببت فى إيذاء مشاعرهيراكليس. ولعلنا نلاحظ أن رد فعل " هيراكليس" الذى انصب فقط على صيغة عرض " أوجياس"، وليس تجاه العرض ذاته، لايخلو من سخرية لاذعة تساهم فى تراكم ملامح الصورة الهزلية لهيراكليس فى هذه المسرحية.

ولما كان " بوليبوس"،سكرتير، " هيراكليس" الخاص حريصاً على انقاذه من الإفلاس، حتى يحصل على الأقل على راتبه المتأخر لديه، فإنه لم يفقد الأمل مطلقاً فى البحث عن وسيلة لإقناع " هيراكليس" بتقبل صيغة عرض " أوجياس". كان " بوليبوس" الماكر يعرف أن "هيراكليس" ضعيف أمام عشيقته "ديانيرا"، فلاحت له فكرة عرض الأمـــر عليها .[٦١] لم تتردد " ديانيرا " فى القيام بمحاولة إقناع " هيراكليس" بقبول عرض" أوجياس" خاصة بعدما أطلعها " بوليبوس" على حجم الإفلاس الذى يهدد " هيراكليس"، وضخامة الأجر المعروض عليه[٦٢]. وحينما يقابل " هيراكليس " نصيحة "ديانيرا" بالرفض[٦٣]، فإنها، مثل "بوليبوس"، لا تستسلم، وإنما تلجأ إلى أسلوب التلاعب بالألفاظ لدغدغة مشاعر " هيراكليس" حتى يلين، إذ تحاول أن تسحره بقولها:

" إن نوع العمل الذى يؤديه الإنسان أمر غير هام، لكن الأهمية كلها تكمن فى الطريقة التى يؤدى بها الانسان هذا العمل.إنك بطل، وكبطل ستقوم بازالة الروث . إن ما تقوم به لن يكون مدعاة للسخرية، لأنك انت الذى تقوم به".[٦٤]

ولما لم تفلح عبارات الإطراء فى إقناع " هيراكليس"، فإن إصرار "ديانيرا" على قبول " هيراكليس" عرض " أوجياس " يدفعها إلى اللجوء إلى وسيلة أخرى تعرف جيداً مدى تأثيرها فى الضغط على "هيراكليس"، إنها تهدده ببيع جسدها لمن

يدفع أجراً يساعدهم على مواجهة أعباء الحياة مادام مصراً على رفض عرض " أوجياس المغرى "[٦٥]. وعند ذلك لايجد"هيراكليس" بداً من الإذعان لها، حتى تتراجع عن هذا الحل المخزى، ويقرر قبوله عرض "أوجياس" قائلاً:

" سأذهب إلى إليس لازالة الروث، من الأفضل أن أكون

عبداً فى زريبة (حظيرة) على أن أصبح قوّاداً[٦٦].

يستانف خط المسرحية مساره نحو النهاية بعد أن نجحت " ديانيرا فى تغيير موقف " هيراكليس" تجاه عرض " أوجياس"، غير أن " هيراكليس" يفاجأ حينما يصل إلى " إليس" أن البرلمان يشترط حصوله على موافقات مجموعة من الإدارات قبل قيامه بمهمته، مما يفقده صوابه[٦٧].غير أن "أوجياس " يهدىء من روعه قائلاً:

" دع عنك الغضب، ونفذ مايعتقدون – هنا – أنه ضرورى ولو

كان منافياً للعقل"[٦٨].

يُفاجأ " هيراكليس" –إذن- أنه قد وقع فى شبكة عاتية من البيروقراطية تحول دون قيامه بعمله . وفى تقديرنا، أن " دورينمات" قد رسم هذا الموقف الساخر بعناية فائقة لكى يصوب من خلاله سهام النقد للمجتمع السويسرى الذى كان يعانى من بيروقراطية طاحنة تحول دون تقدمه، فضلاً عما يقترن بها من كافة ألوان الفسادالتى تضرب البلاد.

لم تكن تلك المفاجاة الوحيدة التى وضعت " هيراكليس" فى موقف لايُحسد عليه، وإنما تواجهه مفاجأة أخرى تزيد موقفه صعوبة، فقد تم تخفيض أجره المتفق عليه من قبل إلى حدٍ كبير[٦٩]، مما يضطره –بإيعاز من عشيقته –إلى العمل فى السيرك القومى الأليسى، إلى جانب قيامه بازالة الروث حتى يتمكن من مجابهة الأعباء المعيشية المتزايدة[٧٠]. لكن ما حدث له مع " أوجياس" يتكرر مع مدير السيرك، فقد قرر هو الآخر تخفيض أجره[٧١].ورغم هذه الحالة المزرية التى وصل إليها " هيراكليس"، فإنه يستسلم للأمر الواقع، إذ لم يعد أمامه خيار آخر سوى انتظار قرار السماح له بإزالة الروث[٧٢]. وأخيراً يصل القرار الذى لم يكن يتوقعه

"هيراكليس"، وذلك على لسان " قمبيز" خادم " أوجياس"، الذى يقول له " لن تقوم بهذا العمل أبداً لأن الروث يملأ أدمغة "الإليسيين"[٧٣].

لقد فشل " هيراكليس "- إذن- فى القيام بمهمته رغم كل التنازلات التى دُفع إليها سواء من قبل كل من "بوليبيوس" سكرتيره الخاص، أو من قبل عشيقته ومن قبل - أيضاً - كل من " أوجياس " ومدير السيرك المتجول. لقد كان " هيراكليس" لعبة فى أيدى كل هؤلاء . وهنا يجدر بنا أن نتساءل عن هدف " دورينمات" من تصوير "هيراكليس" على هذه الصورة المزرية . ربما أراد " دورينمات " أن يجعل المشاهد يواجه أفكاره عن اليونانيين القدماء بواقعية ويرفض فكرة الكمال الإغريقى . ويبقى أن نتساءل عن علاقة تصوير " هيراكليس" على هذه الشاكلة بفكرة المسرحية. فى تقديرنا أن " دورينمات" يريد أن يؤكد فى هذه المسرحية على أنه لا يوجد دور للبطولة الفردية فى المجتمع الحديث، وخصوصاً فى مجتمع ديموقراطى رأسمالى مثل مجتمع "دورينمات" السويسرى. فإذا كان " دورينمات" يرفض البطولة الفردية ، فما هو الحل الذى يقدمه فى هذه المسرحية . نحن نلاحظ أن هناك أكثر من إشارة إلى عيب جوهرى فى المجتمع – فى رأى "دورينمات"- وهو أنه غير قادر على العمل، فأهل "إليس - كما يقول فى أحد مواضع المسرحية - لن يقوموا من أنفسهم بازالة الروث، بل سيظلوا دائماً يتحدثون عن ذلك [٧٤].إن الروث يملأ أدمغة الإليسيين، كما يقول فى موضع آخر[٧٥]. والمعنى الضمنى فى مجمل العمل هوإدانة المجتمع السويسرى، أو ماشابهه من مجتمعات أخرى، لقبوله الأحوال السياسية او الاجتماعية السيئة التى تعادل فى رأى "دورينمات" الأحوال فى السجن الطوعى (الإختيارى)، حيث يصبح السجناء والحراس سواء. الحل –إذن- هو أن يتغير ذلك المجتمع، وهى مسئولية منوطة بالجيل الجديد، حيث ينهى "دورينمات" مسرحيته بنصيحة يوجهها إلى ابنه قائلاً:

" اقتحم الحياة الآن، اقتحمها هنا وسط هذه الأرض القاحلة الخربة، لاكشخص راض، بل كشخص غير راضٍ ينقل عدم رضائه إلى من حوله، وبمرور الزمن تتغير الأشياء[٧٦] ".

هكذا يرى " دورينمات" أن الرفض أول مراحل التغيير، وأن البطولة الحقيقية لا يملكها الفرد وإنما هى ملك المجتمع الفاعل، فكما أن الروث يمكن أن يتحول إلى سماد يخصّب الأرض، فإن أفراد المجتمع الخامل يمكن أن يتحولوا إلى أفراد فاعلين.

هكذا، تناولت هذه الدراسة ثلاثة نماذج لشخصية " هيراكليس" فى إطار علاقتها بالمجتمع . ففى تراجيدية " فيلوكتيتيس"، يؤمن " هيراكليس" بأن مصلحة المجتمع تعلو فوق مصلحة الفرد، وبذلك ينجح فى إقناع "فيلوكتيتيس" بأن يقمع مشاعره العدائية تجاه القادة اليونانيين، ويشارك فى الحرب الطروادية لتحقيق النصر للمجتمع اليونانى.

وفى تراجيدية "جنون هيراكليس" ليوربيديس نجد صورة أخرى مختلفة للعلاقة بين " هيراكليس" والمجتمع، إذ وقف المجتمع منه موقفاً سلبياً رغم ما قدمه من خدمات جليلة، ولم يتصد لقرار طاغية طيبة قتل أسرته.ولقد كان لهذه العلاقة المضطربة بين " هيراكليس" والمجتمع أثرها فى إصابته باضطراب نفسى جعله يفكر فى الانتحار، ثم يتراجع - بعد قليل - ويقرر – فى نهاية الأمر- أن يهجر طيبة ويتوجه إلى أثينا علّه يحظى هناك بتقدير المجتمع.

أما "هيراكليس" عند "دورينمات"، فلا يقوم بدوره فى المسرحية بغرض بطولى وإنما لحاجته إلى المال . والمسرحية تؤكد أنه لا يوجد دور للبطولة الفردية فى المجتمع الحديث، فالمجتمع – وحده- صاحب هذا الدور . إن الحظيرة (الدولة فى هذه المسرحية) لم يتم تنظيفها من الروث (الفساد فى هذه المسرحية)، لأن العون وافد من الخارج، وليس نابعاً من داخل المجتمع.

الحواشى

(1) AR. NE.I.76.ii,Pol.1.2,1252 29-1253a 5. ,Cambridge,1952.

(2) Gill,Christopher, Greek Thoughts , Oxford Univ..Pr.,1955,P.43.
Keyt , D.,And Miller ,F., A Companion To Aristotle's Politics ,Oxford, 1991,PP.94-117.

(٣) فى واقع الأمر أن حجم تناول شخصية " هيراكليس" فى كافة أوجه الثقافة والفنون الإغريقية يفوق أية شخصية بطولية أخرى سواء فى التراجيديا أو الكوميديا أو الشعر الغنائى أو فى الفلسفة أو الرسوم الجدارية والفخارية . انظر:

Loraux Nicole , The Experiences Of Tiresias , The Femenine And The Greek Man .Translated by Paul Wising, Princton Univ.Pr.,1990 , P.170.

(4) Soph. Trach.Edited with An English Translation By Storr.F., vol.ii,L.C.L,1978 , vv.193-199.

(5) Ibid., vv.1112-1113 ,cf.v 633,vv.1010-1011,v.1060 .

(6) Ibid., vv. 824-825

(7) Eur . Her.F., Edited With An English Translation by Way , A.S,vol.3, L.C.L., 1979,vv.850-85.

(8) Ibid ., v.846.

(9) Ibid., vv.850-851.

(10) Adkins , A.N.H , Merit And Responsibility ,Oxford Univ.,Pr.1963, P.169,279,352.

(11) Ar.Rhet., 1363a 19-21,Cambridge , 1964.

(12) Blundell, Mary Whitlock , Helping Friends And Harming Enemies , A Study In Sophocles And Greek Ethics , Cambridge Univ. , Pr.44,58.

(13) Soph., Phi., op.cit,vv.1197- 1200.

(14) Ibid ., vv.1423-1425.

(15) Kitto , H.D.F , Form And Meaning In Drama ,London ,1964,P.136 f.
Lingforth , I.M ,"Philoctetes , The Play And The Man",UCPCP,15, 1956,95-158 ,PP.51-56.

(16) Bowra , C.M , Sophoclean Tragedy , Oxford , 1944,PP.103-03.
Gravie , A.F , "Deceit ,Violence And Persuasion In Philoctetes", Studi Classici In Onore Di Quintino Cataudella , Vol.I,Catania 1972,213-26,p.226.

(17) Buyton , R.G. A.,Persuasion In Greek Tragedy , Cambridge ,1982, 128f .

Easterling ,P.E., " Philoctetes And Modren Criticism " ,ICS 3, 1978 , 27-39 , P. 31,33f.
(18) Blundell , Mary Whitlock , op.cit , P.264.
(١٩) د. ماهر شفيق، مدخل نفسي إلى مسرحية سوفوكليس " فيلوكتيتيس"، أوراق كلاسيكية، العدد السابع،٢٠٠٧، القاهرة، ص ١٣٧.
(20) Eur .Her .F. op.cit , vv.38-43.
(21) Ibid ., vv. 74- 75.
(22) Ibid., vv.97- 99.
(23) Ibid, vv.115-116.
(24) Ibid, vv.493- 495.
(25) Ibid, vv. 144-164.
(26) Ibid, v. 515 ff.
(27) Ibid,vv. 53- 55 , 84-85.
(28) Ibid,vv 113-117 , 134-135.
(29) Ibid,v. 109.
(30) Ibid,vv. 270-274.
(31) Ibid,vv.587-592.
(32) Ibid,vv.134-135.
(33) Ibid,vv.217-228.
(٣٤) يوربيديس، "جنون هيراكليس" ، ترجمة وتقديم ومعجم أسطورى، أحمد عتمان، المشروع القومى للترجمة،٢٠٠١، القاهرة،ص ٥٥.
(35) Eur.,Her.F. ,op.cit, v.515.ff.
(36) Higgins , W.E., "Diciphering Time In The " Heracles Of Euripides " Quaderni Urbinati Di Cultura Classica , New Series , Vol.18 N3, 1984, P.90.
(37) Eur. Her.F op.cit., vv 558-560.
(38) Ibid, vv 568-560.
(39) Ibid, vv. 747-755.
(40) Ibid, v. 857 ff.
(41) Ibid,vv. 969- 971.
(42) Holmes Brooke , " Euripides Heracles In The Flesh" , Classical antiquity,Vol.27 ,Issue 2 ,2008,pp.231-281, pp. 241-242.
(43) Her. F. op.cit, vv.572-574.
(44) Ibid,vv.1103-1104.
(45) Ibid, vv.1146-1149.
(46) Ibid,vv.1169-1171,1220-1223.
(٤٧) انظر حاشية (٤٣).

(48) Her.F. op.cit,v.1250.
(49) Ibid, 1252.
(50) Higgins , W.E.,op.cit,P.104.
(51) Her.F.op.cit., vv.1322-1331.
(52) Riley ,Kathleen, Reasoning ,Madness , The Reception Of Euripede's Heracles , Oxford Univ. Pr.,2008,P.45.
(53) Her.F.op.cit,vv. 1349-1352.
(٥٤) يوربيديس، جنون هيراكليس، ترجمة وتقديم ومعجم أسطورى، د. أحمد عتمان، المرجع السابق،ص ص ١١٧-١١٨.
(٥٥) فريدريخ ديرنمات، هيراكليس وحظيرة أوجياس، ترجمة وتقديم د.سعد الخادم، مطبعة مكتبة الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٥.
(٥٦) د. أحمد كامل عبد الرحيم، وداعاً لأعظم كاتب مسرحى، فريدريش دورينمات، مجلة القاهرة، العدد ١١٣- القاهرة،١٩٩١، ص ص ٩٩-١٠٠.
(٥٧) فريدريخ ديرنمات، هيراكليس وحظيرة أوجياس، ترجمة وتقديم د. سعد الخادم، المرجع السابق ص ٥١، ٥٣.
(٥٨) نفس المرجع، ص ص ٦٢-٦٣.
(٥٩) نفس المرجع،ص ص ٦٩-٧٠.
(٦٠) نفس المرجع،ص ٤٧.
(٦١) نفس المرجع، ص ٧١.
(٦٢) نفس المرجع، ص ص ٧٣-٧٤.
(٦٣) نفس المرجع، ص ٧٨.
(٦٤) نفس المرجع ص ٧٩.
(٦٥) نفس المرجع، ص ص ٧٩-٨٠.
(٦٦) نفس المرجع، ص ٨٠.
(٦٧) نفس المرجع،ص ص ٩٧-٩٨.
(٦٨) نفس المرجع، ص ٩٩.
(٦٩) نفس المرجع، ص ص ١١١-١١٢.
(٧٠) نفس المرجع، ص ص ١٠٥- ١٠٩.
(٧١) نفس المرجع، ص ١٣٢.
(٧٢) نفس المرجع، ص ١٣٣.
(٧٣) نفس المرجع، ص ١٣٨.
(٧٤) نفس المرجع، ص ٩٩.
(٧٥) نفس المرجع، ص ١٣٨.
(٧٦) نفس المرجع، ص ١٤٦.